﴿*أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمّد ﷺ: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اتِّباعُ ما ذُكِرَ بالتَّوبيخِ والإنذارِ بسُنَنِ الماضينَ، مُسبِّبًا كَراهتَهُم المَذكورة

لمّا كانَ لا يَجرؤُ على ارتكابِ هذه العظائم، ولا يَستهينُ بمثلِ هذه القضايا، إلّا مَن أمِنَ العقوبةَ، ولا يأمَنُها إلّا مَن أعرَضَ عن ذِكرِ اللّه، وجَحَدَ آياته، وكانَ في وقائِعِه تعالى في الأُممِ الخاليةِ، التي كذَّبَت رُسُلَه، وناصَبَت أولياءَه العَداءَ، وعَدَت على حُدوده، أعظَمُ الزّاجرِ وأبلَغُ المانِعِ، وجاءَ الإنكارُ عليهم في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ موبِّخًا ومُحذِّرًا، مُنذِرًا إيّاهُم بأسَهُ، ومُخوِّفًا لهُم بطشَهُ وسَطوتَهُ، وما يُنزِلُهُ بأعدائه مِن شديدِ العُقوبةِ، مُسبِّبًا كَراهتَهم المَذكورةِ، وما تأثَّر عنها مِن العداوةِ لأهلِ اللّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أصلُ مُفردة (عقب) يَدُلُّ على تَأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا، فهو عَقيبُهُ[2]، والعَقِبُ: مُؤخَّرُ الرِّجْل[3]، والعاقِبَةُ: آخِرُ الأمرِ، وأثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيءُ، ويظهَرُ في آخِره مِنْ أثَرٍ ونَتيجة[4]، والعاقِبَةُ والعُقْبَى يَختَصّانِ بالثَّوابِ، نَحْوُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][5]، وسُمّيَت بِذلك؛ لأنَّها تَتلو الذَّنْبَ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 211.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 92.
(5) الرّاغب، المفردات: (عقب).

مِن تَعَقَّبَهُ؛ إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخذتُهُ بذَنْبٍ كان منه، والجمع: عُقوباتٌ[1]، والمقصود من ﴿عَٰقِبَةُ﴾ في الآية: آخرُ أمرِ الكافرين قبلهم من العقوبةِ، والهَلكة[2].

2) ﴿دَمَّرَ﴾: الدَّمارُ: استئصالُ الهلاك، يقال: دَمَرَ القومُ يَدْمُرون دَمارًا، أي: هَلَكوا[3]، وأصلُ التَّدمير: إدخالُ الهلاكِ على المُهلَكِ، وأصلُ (دمر): يدُلُّ على الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه[4]، والتَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيء[5]، فالدَّمارُ: بمعنى الهلاكِ المُستأصِلِ، وهو المُراد باللَّفظة في الآية الكريمة، وليس في القرآن مِنَ التَّركيب إلّا (التَّدمير) بهذا المعنى[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوبيخُ على الإعراضِ عن العِبَرِ بالتَّحذيرِ مِن مَصارِعِ المُكَذِّبينَ

يوبِّخُ اللّه جلَّت قُدرتُه الكافرينَ على غَفلَتهم عن مَصارِعِ الأوَّلينَ، وإعراضهم عن الاعتبارِ بما حاقَ بِمَن كانَ قبلهم مِن أُمَمِ الطُّغيانِ، فيقولُ: أفلم يَسيروا في الأرض، فيتأمَّلوا ما آلَ إليه أمرُ المُكَذِّبينَ، وكيفَ كانت عاقِبَتُهُم الخُسرانَ والهَلاكَ؟، لقد أرسلَ اللّه عليهم بأسَه، فاستأصَلَ شَأفَتَهُم، وأبادَ ذِكرَهُم، فما أبقَى لهم مِن باقيَةٍ، ولِمَن سَلَكَ سبيلهم مِن أهلِ الكُفرِ والضَّلالِ أمثالُ ذلكَ المَصيرِ المُهلِكِ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ بالاستفهام الإنكاري:

التَّقريعُ والتَّوبيخُ بالاستفهامِ، والتَّحذيرُ بضربِ الأمثالِ لِمَصارِعِ المُعرِضينَ

جاءَ الاستئنافُ بالجُملةِ الاستفهاميَّة في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 234، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 17.
(3) الخليل، العين: (دمّر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (دمر)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 355.
(5) الرّاغب، المفردات: (دمر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (دم).
(7) الثّعلبي، الكشف والبيان: 31/ 9، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 311، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 785، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 87/ 26.

﴿يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ توبيخًا وإنكارًا على المُعرضينَ، وتحذيرًا من سوءِ عاقبةِ المُكَذِّبينَ، بالسَّير والنَّظر في عاقبة مَن سَبَقَ لِتَقرُبَ العِظةُ إلى الأذهانِ، ويتَّضِحَ الإنذارُ بأبلَغِ بَيانٍ، وقد قُدِّمَ هذا التَّوبيخُ قبلَ بيانِ سوءِ الجزاءِ، وهو مِن إعجازِ النَّظمِ القُرآنيِّ؛ إذ يَضعُ اللهُ أمامَ العاصي بَراهينَ العِبرةِ والحُجَّةِ قبلَ أن يُبيِّنَ له مَآله، ليَرتَدِعَ إن كانَ فيهِ وعْيٌ أو تَدبُّرٌ، فها هُم كُفّارُ مكةَ قد صَدّوا عنِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، وأظهَروا الكُرهَ لِما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، فجاءَت الآيةُ بلهجةِ التَّقريعِ، وبدأها اللهُ ﷻ بأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ، الذي خرجَ إلى معناهُ البلاغيّ وهو الإنكار؛ إذ يُنكر اللهُ عليهم موقفهم من الدَّعوة، وعدمَ اتِّعاظهم بما شاهَدوهُ في أسفارِهم من آثارِ تدميرِ الذين كذَّبوا الرُّسُل فيرميهم بالعَمى والغفلة عن النَّظر فيما حولهم، ليستَنهِضَ العُقولَ مِن غَفلتِها، ويُقيمَ عليها الحُجَّةَ بما عَرَفَتهُ، ويُحذِّرَها مِن سوءِ المصيرِ بِما شَهِدَتهُ مِن آثارِ الهالكينَ، فهَل مِن مُدَّكِرٍ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَسِيرُواْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوبِ الاستفهامِ في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ مُقترنًا بالفعلِ المُضارعِ، ليُفيدَ أنَّ هذهِ الدَّعوةَ ليست موقوفةً على أهلِ مكةَ حسبُ – وهذا على قولٍ في التَّفسير –، بل هي نِداءٌ عامٌّ مُتجدِّدٌ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، يَتردَّدُ صَداها في أسماعِ البَشَرِ أجمعينَ؛ فمَن سَلَكَ سَبيلَ المُنكرينَ كانَ حَظُّهُ مِن الوَعيدِ كحَظِّ سابقيهِ، ومَن أعرضَ عن آياتِ اللهِ، نزلَ بهِ مِن بأسه ما نزلَ بالمُكَذِّبينَ مِن قَبلُ[2].

تَجدُّد الدَّعوة إلى السّيَر واستمرارُها في كُلِّ وقتٍ وحين

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 13/ 322، والدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 9/ 204، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 79.

(2) الزُّحيلي، التّفسير المنير: 26/ 99.

معنى حرفِ الظَّرفيَّةِ في القيد: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإشعارُ بوجوبِ الاعتبارِ والتدبُّرِ في مَصارِعِ الغابرينَ

جاءَ التَّعبيرُ في النَّظمِ القُرآنيِّ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، مع أنَّ السَّيرَ يكونُ على الأرضِ لا فيها، مُستعمَلًا للظَّرفيَّة المجازيَّة؛ وذلكَ ليُنبِّهَ من أوَّلِ الأمرِ إلى أنَّ المقصودَ من هذا السَّيرِ ليسَ مجرَّدَ المَشيِ المُعتادِ الَّذي ألِفوهُ، وإنَّما هوَ سَيرٌ ذو غايةٍ أخرى، قَصدُهُ الاعتبارُ والتَّأمُّلُ، لا مُجرَّدَ الانتقالِ والتَّنقُّلِ، وهذا يوحي بالدَّعوة إلى التَّأملِ والتَّدبرِ في أحوالِ الأممِ السّابقة التي كَذَّبت رسُلها، فأهلكهُم اللّه؛ لأنَّ كُلَّ مَوضعٍ أمرَ اللّه سُبحانه فيه بالسَّير في الأرض؛ سواء كان السَّيرَ الحِسّيَّ على الأقدام و الدَّوابِّ، أو السَّيرَ المعنويَّ بالتَّفكير والاعتبار، أو كان اللَّفظُ يعمُّهما وهو الصَّواب[1].

معنى الفاء في ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

الدَّلالةُ على تَرتُّبِ العِبرةِ على السَّيرِ، وتحقُّقِ النَّظرِ بَعدَهُ وبسَبَبه

جاءَ الرَّبطُ بينَ جُملتَي السَّيرِ والنَّظرِ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، وذلكَ ليُفيدَ تَرتُّبَ النَّظرِ على السَّيرِ، وكونَهُ غايةً لهُ ومَقصدًا من وُجودِه، فلا يكونُ السَّيرُ مُجرَّدَ تنقُّلٍ بَينَ الأقطارِ، بل هوَ سفرٌ للعِبرةِ، ورِحلةٌ للتَّدبُّرِ في مَصارِعِ الأُمَمِ السّابقةِ، فجاءَتِ الفاءُ دالَّةً على أنَّ النَّظرَ يَأتي عَقيبَ السَّيرِ، وبسببِه[2].

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

الدَّلالةُ على تجدُّدِ العِبرةِ، باستمرارِ مُشاهَدةِ عاقبةِ الهالِكينَ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ لتَنْبيهِ العُقولَ إلى تجدُّدِ استحضارِ مَشاهِدِ الهالِكينَ واستمرارِها، وجَعلِها كأنَّها ماثِلَةٌ أمامَهم، يُبصِرونَها بأعيُنِهم، ويَشهَدونَها مُعايَنَةً، لِما للمُشاهَداتِ الحسّيَّةِ من

(1) ابن القيِّم، بدائع التَّفسير: 2/ 454، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 270.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212.

آثارٍ في النُّفوس، ونتائجَ لدى ذوي العقولِ إذا تدبَّروها واعتبروا بها؛ إذْ لم تَزَل آثارُها ناطِقَةً بما جَرَى على أهلِها، وشواهِدُها قائمةً تُخبِرُ عن مَصارِعِهم، فكأنَّها تَنبِضُ بالحِكَم، وتَروي للأجيالِ أخبارَ مَن سَبَق، فهل مِن مُدَّكِرٍ يَتَّعِظُ، أو مُتفكِّرٍ يَرتَدِع[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن التأمُّلِ بالنَّظر:

تصويرُ العِبرةِ كالمُدرَكِ بالبَصَرِ استحضارًا لقوَّةِ التَّأمُّل والتَّفكُّر

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (النَّظرِ) في قولِه تعالى ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، والمُرادُ به التَّأمُّلُ والتَّفكُّرُ؛ إذ شُبِّهَ إدراكُ العِبرةِ بالتَّأمُّلِ، وإعمالُ الفِكرِ بالنَّظرِ الحسّيِّ، بجامعِ قوَّةِ الإدراكِ في كُلٍّ، ثمَّ اشتُقَّ مِن هذا النَّظرِ الحسّيِّ نظرٌ آخَرُ مُرادُهُ التَّدبُّرُ والتَّفكُّرُ، وذلكَ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التبعيَّةِ. وكانَ في هذا التَّعبيرِ بديعُ البيانِ؛ إذ صوِّرَت العِبرةُ والموعِظَةُ بما هوَ مَرئيٌّ مُشاهَدٌ، فيكونُ إدراكُها واضِحًا كوضوحِ الشَّيءِ المُدرَكِ بالبَصَرِ، وكأنَّ مصارِعَ الهالِكينَ كالمَرئيِّ الذي تُدرِكُهُ الأعيُنُ، وتَشهَدُهُ الأبصارُ[2].

بلاغةُ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

حلولُ الهلاكِ يَنبغي أن يُتدبَّرَ، ويتأمَّله النُّظّارُ، ويَعتَبِرَ بهِ أولو الأبصار

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كَيۡفَ﴾ في قولِه تعالى ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ على سبيلِ الاستفهامِ التَّعجُّبيِّ، ليُثيرَ في السّامعين الدَّهشةَ ممّا حلَّ بالأُمَمِ الغابِرةِ مِن نَكالٍ وبأسٍ؛ إذْ كانت وقائعُهُم مُذهِلةً، تُزلزِلُ القُلوبَ، بما حوَتهُ مِن الآياتِ السّاطِعةِ، الَّتي نَطَقَت بها آثارُهم بعدَ أن أفنَتهم قوارِعُ العقوبات، فجاءَ النَّظمُ القُرآنيُّ مسوقًا في أسلوبِ الاستفهامِ التَّعجبيِّ، إيذانًا بأنَّ ما حلَّ بهم مِن خُسرانٍ وهلاكٍ أمرٌ عظيمٌ، يَنبغي أن يُتدبَّرَ، ويَتأمَّله النُّظّارُ، ويَعتَبِرَ بهِ أولو الأبصارِ[3].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 53/ 26.

(2) ابن وهب، تفسير ابن وهب: 2/ 315، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 234، وشحاته، تفسير القرآن الكريم: 26/ 5201، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 270.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212.

معنى ﴿مِن﴾ في القيد: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾:

ما وقعَ بِبعضِ المُجرِمينَ كافٍ للعِبرةِ والموعِظَة

جاءَ التَّعبيرُ في قوله تعالى ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ بإثباتِ حرفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾، ليُفيدَ أنَّ هؤلاءِ المأمورَ بالاعتبار بهم والَّذينَ أصابَهُم العَذابُ ليسوا كُلَّ المُكَذِّبينَ، وإنَّما هُم بعضُهم، بل بعضُ مَن كَذَّبوا الرُّسُلَ على وُجوهٍ شتَّى، وهمُ الذينَ شَهِدَ أهلُ مكة آثارَهُم، وعايَنوا مَدارِسَهُم، وسمِعوا أخبارَهُم؛ مِن عادٍ وثَمودَ ومدينَ وقَومِ لوطٍ، فكانَت بَقايا آثارِهم شاهِدَةً عليهم، وآياتُ الهَلاكِ في ديارِهم ناطِقةً بعِقابِهم، فجاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿مِن﴾ دالًّا على التَّبعيضِ، وإشعارًا بأنَّ ما وقعَ ببعضِ المُجرِمينَ كافٍ للعِبرةِ والموعِظَةِ، فكيفَ لو اعتَبَروا بجميعِ المُهلَكينَ[1].

بلاغة فصل جُملة ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ عن سابقتها:

في تصويرِ الدَّمارِ الـنّـازلِ على المُجرِمينَ بيانٌ لمآلِ كُلِّ مُعرِضٍ عن هُدى الله

أبانَ النَّظمُ الكريمُ عاقبةَ المُهلَكينَ بطريقِ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، وجاءَت هذه الجُملةُ مفصولةً عن السّابقةِ، ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾، وذلكَ لِما بينَهما مِن شبهِ كَمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ جاءت الجُملةُ الثّانيةُ جوابًا ضمنيًّا للسُّؤالِ المُتضمَّنِ في الأولى، وكأنَّهُ قيلَ: وما الذي حلَّ بهِم؟ فأتَى الجوابُ: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، وجاءَ البيانُ مُفيدًا أنَّ الهلاكَ استأصَلهم استئصالًا، وأبادَهم إبادةً لا بَقاءَ بعدها، وفي ذلكَ من عِظَمِ الإعجازِ البيانيِّ ما يُرهِفُ الأسماعَ؛ إذْ صوَّرَ الدَّمارُ كأنَّهُ شيءٌ نزلَ عليهم من علٍ، فحاقَ بهم من كلِّ جانبٍ، وأتى على أنفُسِهم وأهليهم وأموالِهم، فلم يَبقَ لهُم أثرٌ يُذكَر، فهكذا كانَت عاقبةُ المُجرِمينَ، وهكذا يكونُ مآلُ كُلِّ مُكذِّبٍ مُعرِضٍ عن هُدى اللّه، فهل مِن مُتَّعِظٍ يَنظر، أو مُتدبِّرٍ يعتبر[2].

(1) ابن عطيّة الاندلسي، المُحرّر الوجيز: 5/ 112، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212، والحجازي، التّفسير الواضح: 3/ 463.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 201، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 502.

سرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿دَمَّرَ﴾:

مَنْ حاقَ به سوءُ العَذاب، فلا باقيَة لهُ تُذكَرُ، ولا أثَر يُعرَفُ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿دَمَّرَ﴾ بصيغَةِ الفعلِ الماضي؛ إذْ هو أدلُّ على التَّحقيقِ والوقوعِ، وجاءَ بتضعيفِ الميم، ليُفيدَ شِدَّةَ التَّدميرِ، واستئصالَ أثرِ المُهلَكينَ استئصالًا لا قيامَ بعدَهُ، وكأنَّهُ يُصوِّرُهم وقد حاقَ بهِم العَذابُ، فلا باقيَةٌ تُذكَرُ، ولا أثَرٌ يُعرَفُ[1].

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

إظهارُ هيبةِ العقوبةِ وعِظَمِ الأخذِ

قولُهُ تعالى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: الملك الأعظم، وأُسند الفعلُ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ ليُفيدَ هيبةَ العقوبةِ، وعِظَمَ الأخذِ؛ فإنَّ لله ﷻ البطشَ الشَّديدَ، والأمرَ النّافذَ، فلا يُرَدُّ قَضاؤُه، ولا يُدفَعُ عذابُه[2].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به في ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ﴾:

الدَّلالةُ في تعميمِ التَّدميرِ، والمبالغة في الوعيدِ وشدَّةِ التَّهديدِ

جاءَ حَذفُ المفعولِ في قولِه تعالى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ليُفيدَ التَّعميمَ والشُّمولَ، فلا يَقتَصِرُ التَّدميرُ على أمرٍ دونَ أمرٍ، بل يَمتَدُّ إلى كُلِّ ما يَختَصُّ بهم مِن أنفُسٍ، وأموالٍ، وأهْلينَ، وأولادٍ، استئصالًا لا يُبقي لهم باقيَةً، وقد جاءَ الحَذفُ اختصارًا وإيجازًا، فجاءَ اللَّفظُ القُرآنيُّ موجَزًا، مُفيدًا المُبالغة في المعنى، وكأنَّ التَّدميرَ كانَ مِن الشِّدَّةِ بحيثُ لا تُدرِكُهُ العُقولُ، ولا يُحيطُ بهِ وصفٌ، فكانَ الحذفُ أبلَغَ في التَّهديدِ، وأشدَّ في الوعيد[3].

معنى (على) في ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

المُبالغةُ في تصويرِ الإطباقِ والإهلاكِ بلا فِكاكٍ ولا نَجاةٍ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِهِ تعالى ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بإثباتِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وذلكَ لإضفاءِ مزيدٍ من الإحاطةِ والاستئصالِ في التَّدميرِ، فقد تضمَّنَ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ معنى الإطباقِ والإحاطةِ، وكانَ الإتيانُ بـ (عَلَى) دالًّا على الإيقاعِ والهُجومِ وكأنَّ الدَّمارَ

(1) فاطمة السيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة محمّد ﷺ: 6/ 272.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 212، وفاطمة السِّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.
(3) الضمدي، الفرات النّمير: 3/ 181، وبهجت صالح، إعراب القرآن الكريم: 9/ 350، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 202.

قد أطبقَ عليهم مِن كُلِّ جانبٍ، فلم يَدَعْ لهُم مَهْربًا، ولم يُبْقِ لهم مُستَمسَكًا، فكأنَّ العذابَ نَزلَ عليهم نزولَ الصّاعقةِ، فلم يُخلِّص ممّا يَختَصُّ بهم أحد، يُقال: دمَّرَهُ: أهلكَهُ، ودمَّر عليه: أهلكَ عليه ما يختصُّ به؛ فَدمَّرَ عليه أبلغُ من دَمَّره[1].

بلاغةُ الكنايةِ عن شِدَّة العذاب بالتَّدمير:

الإيحاءُ بتَناهي العُقوبةِ، والإشعارُ بفَظاعَةِ النَّكال

جاءَ التَّعبيرُ بالتَّدميرِ على سبيلِ الكِنايةِ، مُشيرًا إلى شِدَّةِ العذابِ الَّذي أحاطَ بهم، فلم يُبقِ لهم أثَرًا، ولم يَدَعْ لهم مِن باقيَةٍ؛ إذْ جاءَ الهلاكُ مُطبقًا على كُلِّ ما يَختَصُّ بهم مِن أنفسٍ وأموالٍ وأهلٍ، فاستأصلَ شَأفَتَهُم استئصالًا، فلم يُبقِ لهم مَلجأً، ولم يَترُك لهُم مَهْرَبًا، وكانَ في هذا التَّعبيرِ إيحاءٌ بتَناهي العُقوبةِ، وإشعارٌ بفَظاعَةِ النَّكالِ[2].

سِرُّ وضعِ الظّاهرِ مَوْضِعَ المُضمَرِ بالتَّصريح بذِكْرِ الكافرين:

إظهارُ العِلَّةِ في استِحقاقِ العُقوبةِ، وتحقيقِ الوعيدِ لمُشركي قريش

خُتمتِ الآيةُ بقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ حيث صرَّح بلفظ الكافرين ولم يقُل: (ولهم أمثالها) فهو من قبيل وضعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَر؛ وفي هذا تسجيلٌ عليهم لكُفرهم صراحةً و تنبيهٌ على أنَّه عِلَّةٌ لعقوبتِهم، وفيه تنويعٌ للأسلوبِ بالانتقال من مَشاهد الماضي ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى صورةِ الحاضر ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ ليُؤكِّدَ أنَّ ما حلَّ بالسّابقينَ ليسَ قَصَصًا يُروَى، بل هو وعيدٌ ثابتٌ يَجري على مَن تَشبَّهَ بهم وسارَ على دَربهم، فكأنَّ كُفّارَ قُرَيشٍ يَرَونَ في هلاكِ الأوَّلينَ صورةَ مَصارِعهم، ويُبصِرونَ في مَدارِسِ القُدَماءِ آثارَ هَلاكهم، والظّاهرُ أنَّ اللّام للعَهْدِ، أي: كُفّار قريش، واللّام الجارَّة للتَّهكُّم أو للاستحقاق والاختصاص، وهو بذلك يُحقِّقُ الوعيد لمُشركي مَكَّة الذي توعَّدهُم به[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 202، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 502، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 112.

(2) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

(3) مكي، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 11/ 6892، والسّيواسي، عيون التّفاسير: 4/ 118، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 18/ 17.

وقد يُرادُ بالكافِرينَ في قولِهِ تعالى ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أولئكَ المُتقدِّمونَ الذينَ حاقَ بهم العذابُ في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ أمثالُها، وذلكَ على قَولٍ في التَّفسيرِ[1]، أو يكونُ قد عَدَلَ عن الإضمارِ فقالَ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بدلًا من (ولهؤلاء)، وذلك تَعميمًا للحُكم، وتَعليقًا لهُ بالوَصفِ لا بالأشخاصِ، وهوَ العُتوُّ في الكُفرِ، والعَراقةُ في العِنادِ؛ فكان فيه بِشارةٌ بأنَّ بَعضَهم سيُنْجيهِ اللّه تعالى مِن أسْبابِ الهَلاكِ؛ لكَونِه ليس عَريقًا في الكُفرِ؛ لأنَّه لم يُطبَعْ عليه[2].

فـي الإظـهـار تَعميمٌ للحُكمِ، وتَـعـلـيـقٌ لـهُ بـالـوَصـفِ لا بالأشخاصِ

سرّ تقديم الخبر ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

جاءَ تقديمُ المُسنَدِ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ إفادةً للقَصرِ، فَحُصِرَ العذابُ، وهوَ أمثالُ العاقبةِ، فيمَن اتَّصفَ بصفةِ الكُفرِ، وذلكَ تأكيدًا على استِحقاقِهم لِذلكَ الجزاءِ، وجَزاءً لِما سَتَروا بهِ نورَ الإيمانِ، وأعرَضوا عن الهُدى والبيانِ، وفي ذلكَ تخصيصٌ لهذا العذابِ بالكُفّارِ[3].

مـن يـسـتـر نـور الإيمان يستحقّ العذاب

الغرَضُ من التَّعبير بالمبتدأ مجموعًا مضافًا، وبيانُ مرجع الضَّمير:

جاءَ التَّعبيرُ بالمبتدأ ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ مجموعًا مُضافًا، مع أنَّ المرجِعَ – وهوَ العاقبةُ – مُفردٌ، وذلكَ للمبالغةِ والتَّهديدِ؛ إذ لم يُرِدِ الإخبارَ عن عاقبةٍ واحدةٍ تَلحَقُ بالكافرينَ، بل أرادَ أن يُصوِّرَ شدَّةَ العذابِ بكثرةِ ضُروبِه، وتنوُّعِ صوَرِه، فلا يكونُ لهم منهُ مَهربٌ، ولا عنهُ مَنعةٌ، وقد عادَ الضَّميرُ في ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ على العاقبةِ، فكانَ في ذلكَ إنذارٌ صارِخٌ لكُفّارِ مكةَ، الَّذينَ ظهَرَت لهم آياتُ الصِّدقِ، وبَراهينُ النُّبوَّةِ، ومع ذلكَ تمادَوا في العِنادِ، واستَكبَروا عن قَبولِ الحقِّ، فما كانَ إلّا أن حَلَّ بهم مِن العذابِ ما استوجَبَتهُ أعمالُهم، فوقعَ عليهم مِن النَّقمةِ بيدِ رسولِ اللّه ﷺ وأصحابه ما هو مِثلُ ما حاقَ بالأُمَمِ

فـي الجـمـع توكيدٌ للوعيدِ، وتصويرٌ لتعدُّدِ العـذابِ وتنوُّعِ صوَرِه

(1) البيضاوي، أنزار التّنزيل: 5/ 121، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 94.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 112 - 213.
(3) فاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

الغابِرةِ، تحقيقًا لسُنَّةِ الله في نُصرَةِ دينه، وإعلاءِ كَلِمته؛ فكانتِ العاقبةُ واحدةً، وإنِ اختلفَ الزَّمانُ والمكانُ، فبُعدًا لِلقَومِ المُجرِمينَ[1].

بلاغةُ الاعتراضِ في الجُملةِ الكريمة:

الانتقالُ من ذِكرِ عذابِ السّابقينَ إلى تهديدِ اللّاحقينَ

جُملةُ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ قد تُحملُ على أنَّها اعتراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمُرادُ بالكافرينَ: (كُفّارُ مكَّةَ)، والمعنى: المقصودُ بالكافرينَ (كفّارُ مكةَ)، والمعنى: وكما نزلَ الدَّمارُ بالمُكَذِّبينَ الأوَّلينَ، فَلكُم أيُّها الكافِرونَ أمثالُهُ إنْ لم تَعتبِروا، ولم تَرعَووا، وفي هذا الاعتراضِ تَصريحٌ بعدَ التَعريضِ في قَولِه: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ لِلتَّأكيدِ بالتَّعميمِ ثمَّ الخُصوصِ[2].

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 131، وفاطمة السّيد، من بلاغة القرآن الكريم في سُورة مُحمّد ﷺ: 6/ 272.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 88/ 26.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"